الفصل الثانى

التاريـخ كعلـم

حينما أخذ الإنسان البدائى منذ فجر المدنية يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجة بأساطيره ومعتقداته، بدأ " التاريخ " يظهر إلى حيز الوجود فى صورة بدائية أولية، وبدأ الإحساس به يتكون فى ذهن الإنسان منذ أقدم العصور؛ وتدرَّج التعبير عن " التاريخ " مختلطاً أولاً بعناصر من الفن كالرسم والنقش على الحجر. وعندما سارت البشرية قدماً فى مضمار الحضارة فى شتى أساليبها وصورها، رويدًا رويداً، أخذ " التاريخ " يشكل أساساً جوهرياً فى تسجيل موكب البشرية الحافل الدؤوب، إذ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذى يقدم لنا ألواناً من الأحداث وفنوناً من الأفكار وصنوفاً من الأعمال والآثار [33].

ومهما كان من أثر القوى الإلهية أو الميتافيزيقية العليا التى يمكن أن تسيطر على مصائر البشرية وأحداث " التاريخ "، فإن " التاريخ " يتخذ مجراه على يد الإنسان بطريق مباشر، وفى ظروف معينة. فالإنسان ابن الماضى، بل هو ثمرة الخَلْقْ كله منذ أزمان سحيقة. ويذهب بعض المفكرين مثل " كروتشه " إلى اعتبار " التاريخ " كله تاريخًا معاصرًا، ولا يستطيع الإنسان أن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم الماضى [34]؛ بمعنى أن " التاريخ " يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضى من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشكلاته [35]. ومعرفة الماضى تكسب الإنسان خبرة السنين الطويلة، والتأمل فيه يبعد الإنسان عن

ذاته، فيرى ما لا يراه فى نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه، ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه، وأقدر على حُسْن التصرف فى الحاضر والمستقبل [36].

وعلى هذا الأساس، اختلف بعض رجال " العلم " و" التاريخ " و"الأدب"، فى وصف " التاريخ " بصفة العلم [37]. فها هو " كولنجوود " [38] يقول: " فى اعتقادى أن كل مؤرخ سيتفق معى فى أن التاريخ نوع من أنواع البحث العلمى. ولست اسأل الآن أى نوع من أنواع البحث هو، وإنما المهم هو أن التاريخ من حيث " الأصل " يندرج تحت ما نسميه العلوم، وهى التى نقصد بها ألواناً من التفكير تبعث فينا أسئلة معينة نحاول الإجابة عنها، ومن المهم أن ندرك أن العلم بصفة عامة لا يتألف من جميع ألوان المعرفة التى اكتسبناها ثم أخضعناها لتنظيم أو ترتيب معين وإنما هو يتألف من تركيز الجهد فى شىء لا نعرفه لنحاول أن نتعرف حقيقته ..... إن قيمة التاريخ العلمية مشروطة بقدرته على تنظيم الأشياء تنظيمًا جديدًا .... وهذا هو السبب فى أن العلم كله يبتدئ بالمرحلة التى نوقن عندها بأننا جهلاء، ولا أقصد هنا جهلنا بكل شىء وإنما أقصد جهلنا بشىء معين بالذات، ..... إن العلم هو الكشف عن حقيقة الأشياء، وهذا هو المعنى الذى نقصده من قولنا إن التاريخ علم " [39].

وذهب إلى هذا الرأى المؤرخ الكبير " بيورى " [40] حيث قال: " التاريخ علم لا أكثر ولا أقل، وأن وقائعه يمكن أن تُدْرَس موضوعياً كوقائع " الجيولوجيا" و" الفلك"، أى أن تُدْرَس على أنها " أشياء " خارج الذات، إذ لا يتسنى قيام علم على أساس ذاتى، والوقائع التاريخية يمكن أن تُجْمَع وتُصَنَّف وتُفْسَر كما هو الحال فى أى علم ". لكن البعض الآخر يحتج على وصف " التاريخ" بصفة العلم وهم أصحاب المذهب الطبيعى، الذين يرون أن مادة " التاريخ " تختلف عن مادة " العلوم "، من حيث كونها غير ثابتة

ولا قابلة للتحديد. وأنه ليس من الميسور أن نعاين وقائع " التاريخ " معاينة مباشرة، وأن الاختبار والتجربة أمران غير ممكنين فى الدراسة التاريخية، كذلك كل واقعة من وقائع " التاريخ " المسلم بها قائمة بذاتها؛ وليس فى الإمكان تصور ظروف يتكرر فيها وقوعها. ولا يمكن أن نصل فى " التاريخ " إلى قوانين علمية ثابتة – على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلاً – حيث إن مادته مركبة تركيباً لا نهاية له، وأنه ليس ثمة اتفاق بين المؤرخين على ما هو هام من الوقائع التاريخية وما ليس بهام منها. والذى يُبعد بـ " التاريخ " عن صفة العلم، فى نظرهم، قيام عنصر المصادفة الذى يهدم كل تقدير سابق، ويحبط كل محاولة ترمى إلى تكهن الحوادث، والأخبار بها قبل وقوعها. وفوق كل ذلك، فإن قيام عنصر الشخصية وحرية الإرادة يجعل كل مجهود يرمى إلى إقامة " التاريخ " على أسس علمية مجهوداً ضائعًا [41].

ويرى بعض رجال " الأدب " أنه سواء أكان " التاريخ " علمًا أم لم يكن، فهو - بلا ريب - فن من الفنون، وأن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضى سوى العظام المعروقة اليابسة؛ وأنه لابد من الاستعانة بالخيال لكى تُنْشَر تلك العظام وتُبْعَث فيها الحياة، ثم هى بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتى تبرز فى الثوب اللائق بها. وهم يقولون فوق ذلك: " إن ما يتصف به رجل " العلم " من حياد جاف لا محل له، ولا يمكن أن يقاس بمقام المؤرخ المعنىِ بشئون النفوس الحساسة " [42].

وعلى الرغم من أنه لا يمكن أن نستخلص من دراسة " التاريخ " قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن فى العلوم الطبيعية، فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم. ويكفى فى إسناد صفة العلم إلى موضوع ما، أن يمضى الباحث فى دراسته مع سعيه إلى توخى الحقيقة، وأن يؤسس بحثه على

حكم ناقد أطرح منه هوى النفس وكل افتراض سابق؛ مع إمكان الرجوع إلى " التصنيف " و"التبويب" و"التقنين " [43].

إذن، " التاريخ " علم ما في ذلك ريب، لأننا نستطيع ان نطلق كلمة "علم" على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث فى نوع واحد معين من الوقائع. فهو علم الوقائع التى تتصل بالأحياء من الناس فى مجتمع ما من المجتمعات خلال توالى الأزمنة فى الماضى، ويدخل فى عداد العلوم الوصفية التى تختلف عن العلوم العامة اختلافاً بيناً. فهذه العلوم (مثل " علم الميكانيكا "، و"علم الفيزياء"، و"علم الكيمياء"، و"علم الأحياء")، تعمل لاكتشاف القوانين التى تتصل بالظواهر والأحوال الواقعية الزمانية والمكانية، وهدفها ليس تقرير الواقع؛ بل التنبؤ بما سيكون فى أحوال معلومة. والعلوم الوصفية تسعى لمعرفة الوقائع الجزئية إما فى المكان وحده ("كعلم الكون "، و" علم الجغرافيا"، و"علم المعادن "، و" علم النبات "، و"علم الحيوان ")، أو فى المكان وتوالى الأزمنة معاً؛ وإلى هذا النوع الأخير ينتسب " التاريخ". وجميع العلوم لا تعمل إلا فى نوع واحد من الظواهر، لكن " التاريخ " يدرس فى آن واحد نوعين من الوقائع المختلفة كل الاختلاف. النوع الأول: الوقائع المادية التى تُعْرَف بالحواس مثل الأحوال المادية والأفعال الخاصة بالإنسان. النوع الثانى: الوقائع التى هى من طبيعة سيكولوجية مثل العواطف والأفكار والدوافع، والتى لا يدركها إلا الشعور، ولا سبيل إلى الإعراب عنها لأنها مرتبطة بالأفعال السلوكية [44] .

يقول " هرنشو ": " إن التاريخ ليس علم تجربة واختبار، ولكنه علم نقد وتحقيق، وهو أقرب إلى علم الجيولوجيا، فكل من الجيولوجي والمؤرخ يدرس آثار الماضى ومخلّفاته، لكى يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضى

والحاضر على السواء. ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجى من حيث اضطرار الأول إلى أن يدرس ويفسر العامل البشرى الإرادى الإنفعالى، حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية " [45] . وعلى ذلك نجد "التاريخ" مزاجاً من العلم والأدب والفن فى وقت واحد.

لكن ما هو منهج البحث الواجب اتباعه فى دراسة " التاريخ "بوصفه علماً ؟

منهج البحث التاريخى هو المراحل التى يسير خلالها المؤرخ حتى يبلغ " الحقيقة التاريخية "، ويمكن تحديد ثلاث مراحل أساسية لمنهج البحث التاريخى:

المرحلة الأولى: مرحلة " التجميع "، أى جمع مواد المعرفة التاريخية وهى الوثائق[46] بالمعنى الواسع للكلمة. وقد بدأ التاريخ - شأنه شأن العلوم الوصفية (مثل علم الحيوان، وعلم الجيولوجيا) بتجميع الوثائق، ويقوم بهذا العمل مختصون يديرون الحفائر، ويحررون الفهارس والأثبات، وينشرون كتب المراجع. وتعتبر الوثائق الخطية أعظم المصادر، وهناك مصادر أخرى على شكل عدد، ومبان، وحصون، وصور، ونقوش، بل وعلى شكل رواية شفوية أيضاً [47] .

المرحلة الثانية : وهى مرحلة " النقد "، فلا يجوز أن يقبل المؤرخ كل كلام أو يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والاستقراء، فيأخذ الصدق أو أقرب ما يكون إليه، ويطرح جانباً ما ليس كذلك. ينبغى أن يناقش كل هذه الأشياء، خاصّة الوثائق الخطية من حيث صحة أصلها، ودقة روايتها، وكون عبارتها فى ذاتها قابلة للتصديق وكذلك من حيث المستوى العقلى والخلقى لكتابتها. وإذا أعوزت المؤرخ ملكة " النقد " سقطت عنه

صفته، وأصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه على أنه حقيقة واقعة، وليس بهذا يُدْرَس أو يُكْتَب " التاريخ " [48].

المرحلة الثالثة: مرحلة " التأويل " وهى أصعب المراحل الثلاث، وفيها ينبغى على المؤرخ أن يكون صاحب إحساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال بالقدر الذى يتيح له أن يدرك آراء الغير ونوازع الآخرين. وبذلك يمكنه أن يتلمس مثلاً أخبار " الإسكندر "، و"قيصر"، و"صلاح الدين الأيوبى"، و"ابن رشد"، و"باخ"، و"لويس الرابع عشر"، و"نابليون" ..... إلخ، ويحس ما جاش بصدورهم من شتى العواطف، ويفهم - بقدر المستطاع - الدوافع التى حركتهم لاتخاذ سلوك معين فى الزمان الماضى [49].

* * * *